الرؤية الشعريّة والهمّ الحضاريّ

) أ.د. هاشم الأيّوبي ، عميد كلّيّة الآداب

جامعة الجنان ، لبنان)

عندما يختزن الشاعر ثقافة أمّته وتراثها ويعيش في الوقت نفسه همومها ويتفاعل مع كلّ طارئ سلبي أو إيجابي يمرّ بها ، فإنّه يحمل عبء المحافظة على هويّة أمّته الحضاريّة ويبدع رؤية لحالة جديدة يحلم بها لأمّته . واستناداً إلى هذا الانتماء تتشكل الرؤية كما تتشكل الهواجس التي يعيشها الشاعر مباشرة لتنعكس في المعاناة وفي اللغة الشعرية التي تعبّر عن هذه المعاناة بمختلف جوانبها .

هذا الهمّ الحضاريّ والقدرة الرؤيوية تجلّت عند أكثر من شاعر ، ولكننا نجدها عند خليل حاوي تمتلك عليه كلّ جوارحه حتى النزع الأخير .

فمنذ أن أطلق هذا التساؤل المفجع :

يا لثقل العار

هل حُمّلتُه وحدي

وذلك في مجموعة " الرعد الجريح " ، انطوت مرحلة من التجربة الشعرية عند خليل حاوي لتبدأ مرحلة جديدة تحمل تحدّياً فنّيّاً جديداً على مستوى المعاناة والرؤية واللغة .

لا يعني ذلك أنّ شاعراً جديداً قد ولد ، بل يعني أنّ الحدث الخارجيّ لم تعد تفصله مسافة عن ذات الشاعر حيث تنصهر عناصر القصيدة . فقلما نرى في الحقيقة شاعراً تتواصل لديه الرؤية في تكامل داخليّ وعضويّ بين ذات الإنسان الشاعر وذات الأمّة التي ينتمي إليها ، كما تتواصل عند خليل حاوي .

فمن " نهر الرماد " إلى " من جحيم الكوميديا " مروراً ب " الناي والريح " و" بيادر الجوع " و" الرعد الجريح " نرى وحدة الهمّ الحضاريّ تسيطر على أعصاب الشاعر وفكره وكلماته وتمرّ في منعطفات حادّة من التباين الشعوريّ هي في الحقيقة سيرورة طبيعيّة لشاعر متوهج

الرؤية والعصب ، لا يفصله عن ذات أمّته إلاّ ما يفصل القلب عن خفقاته . شاعر يكتنز تراث الأمّة ويعرف قيمته في مدارج الرقيّ الإنسانيّ ويحمل همّ يومها وإرهاصات غدها ، في معاناة لا تحجب عنه الرؤية سواء أكانت تحمل الرعب أو تحمل البشارة .

ولو توقفنا عند المنعطفات الحادّة التي مرّت بها أمّتنا في زمن قصائد حاوي لأدركنا طبيعة تلك التجاذبات المتفاوتة لديه .

لا بدّ من القول – ولستُ السبّاق إلى ذلك – بأنّه من الصعب أن نفصل معاناة خليل الذاتيّة عن معاناته الكلّيّة . وحدود تلك المعاناة الكلّيّة تنطلق من القرية وساحتها وصنّين وثلجه وصبحه ، إلى المدينة وأزقّتها وحاناتها ، إلى ما بين المحيط والخليج ، إلى تخوم الشرق ثمّ إلى آفاق الإنسانيّة . ولا شكّ في أنّ ثقافة خليل الواسعة والأصيلة في الوقت نفسه أمّنت لتلك الدوائر المترامية تماسكاً يبعدها عن المغالاة والهوس .

لكلّ من تلك الدوائر حضورها ولغتها في المسار الشعري عند خليل حاوي . ففي " نهر الرماد" على وجه التحديد تظهر دائرة " الشرق " على أنّها الفضاء الطبيعيّ للغة المعاناة والرؤية عنده .

هكذا نرى البحّار بعدما راوغه الريح " رماه الريح في الشرق العريق " . والدرويش نراه قابعاً في " ضفّة الكنج العريق " ونرى " مجوس الشرق " في أوروبا ونرى " هدايا من كنوز الشرق " في باريس . ونرى ، والأسى يعصر قلبه في نظرة إحباط " فندق الشرق الكبير " بما تعنيه كلمة فندق من عبور غير متجذّر ومن تبلّد أقرب إلى الانحلال ومن قشور صنمية ، قبالة " البيت " رمز الأصالة والتجذر والانتماء .

أمّا في قصيدة " الجسر " فقد بدا التزامه " الشرقيّ" على أوضح صورة . التزام بالعبور إلى الشرق الجديد جاعلاً من أضلعه جسراً للعابرين ، في أهزوجة من أحلى ما غنّى شاعر عربيّ للغد الموعود .

يعبرون الجسر في الصبح خفافاً

أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيد

من كهوف الشرق ، من مستنقع الشرق

إلى الشرق الجديد

هل يعني هذا أنّ الدوائرتتوجّه نحو الشرق وأنّ خليل حاوي يندرج إلى أقرب المسافات من نفسه ؟

ليس الأمر كذلك بهذه البساطة ، وإن كانت القصيدتان الأخيرتان من نهر الرماد " عودة إلى سدوم " و " الجسر " قد مهّدتا الطريق ولو باكراً إلى المرحلة الثانية من تجربته الشعرية .

ربّما كان المدّ القوميّ العربيّ في تلك الفترة حافزاً لدى خليل لبلورة موقعه الأكثر انكشافاً ، لكن في مجموعتيه التاليتين : " الناي والريح" و " بيادر الجوع " عودة إلى التأمّل والمعاناة الذاتيّة والكلّيّة مع فارق في التجربة الشعوريّة ، حيث يسيطر الإحباط على المجموعة الثانية ، وقد يكون مرتبطاً بأحداث على صعيد الأمّة ، كان من أبرزها بلا ريب صدمة انهيار أوّل تجربة للوحدة العربيّة في العصر الحديث وذلك في أيلول 1961 .

لكنّ هواجس أربعة لم تفارق شعر خليل حاوي في كلّ قصائده :

- انصهار الذات بالكلّ
- هاجس الانبعاث
- هاجس البطل
- هاجس اللغة

وإذا كانت ثقافته الأصيلة ، كما ذكرنا ، قد أمّنت له التماسك في الرؤية ، فإنّ قدرته الشاعريّة استطاعت أن تؤمّن التناغم والحيويّة لهذا الحشد الهائل من الرموز والصور والمنابع المعرفيّة من بابل إلى أثينا ، من بيروت إلى باريس إلى كامبردج ، ما يستلزم تتبعه مجالاً أرحب . وكلّ ذلك كان يمكن له أن يربك القصيدة ويثقل حركتها لو لم تصهرها شاعريّة خليل في مدار الكلمات .

الحدث المباشر ، كما أرى ، هو الذي يضغط على أعصاب خليل لينتقل به إلى تجربته الشعريّة الثانية في " الرعد الجريح " و" من جحيم الكوميديا "

انطبعت صورة الجنديّ العربيّ المصلوب حافياً عارياً على رمل سيناء في حزيران 1967 في مخيّلة كلّ العرب ، غير أنّ وقعها في نفس شاعر مثل خليل حاوي له طعمٌ آخر .

لا تزال الصورة في ذاكرتي كأنّها أمس . كنّا مع خليل حاوي في حديقة الجامعة الأميركيّة في بيروت ، وكان في يده جريدة (أظنّها المحرّر) وينظر فيها إلى صور القدس بعد سقوطها في

أيدي اليهود ، وكان يرغي مزبداً لا يعرف من يشتم ولا يدري من يتوعّد . كانت تتشكل لديه بلا شكّ قصيدة " الأمّ الحزينة " وهي سلسلة من التساؤل الاستنكاري والإحباط الموجع :

ما لوجه الله صحراء

وصمتي يترامى عبر صحراء الرمال

ما لبيت القدس بيت الله

معراج النجوم

. ما له لم يحمِه سيف ملاك

يمتطي الريح وأبراج النجوم

يضرب الكفّار أبناء الأفاعي

من سدوم

ما حماة البيت والعار يغنّي

والضحايا تستباح

لم ترالجنّة في ظلّ الرماح "

تبدأ مرحلة جديدة ، بلغة جديدة ، تحتشد فيها ألفاظ تعبّر عن مواجهة الحدث المباشر . لم يعد الموقف يتحمّل التأمّل الحضاريّ مهما كان صدق معاناته . وقد أصبح الوجود في خطر والعار يغنّي على الأبواب . وكان ذلك أكثر ما يثير الرعب في نفس خليل . تختفي لغة الأساطير والأمكنة الغريبة ويصبح الشاعر وجهاً لوجه أمام الوجع المباشر والمقيم

غير أنّ هاجس البطل لم يفارق خليل حاوي الذي كان يسكن فيه طفل لا يطرب إلاّ لحكايات البطولة والعنفوان ، وكان يدبّ فيه اليأس فيحطّم كلّ شيء ، حتّى إذا انتابه شعور أو حدسٌ بقدوم البطل يقفز فرحاً وينسى حزنه ويغنّي للبطل القادم ، وقد يجمح به الخيال لينصهر به .

عاد البطل إلى قصائده هذه المرّة عربيّاً صافياً في قصيدة " رسالة الغفران من صالح إلى ثمود " وعادت تعابير العنفوان العربيّ : الخيول ، السيف ، اللهب . حلّت البرَكة مكان اللعنة ،

وعادت سُمرة الصحراء تتردد في قصائده .

" وتباركت رحِم التي ولدت على ظهر الخيول

ولجت وما زالت بتول

بطلاً يروّي سيفُه لهب الشهاب "

وعادت أهازيج البطولة في نفَسِ جهاديّ :

" وغداً تطيب الجنّة الخضراء

في شمسٍ تسيل على الشفار

...

عاد الأمين مكرَّماً

تحدو به خيلٌ كريمة

يمناه تخلع نعته

نعتاً على أرضٍ مكرّمةٍ

على بلدٍ أمين "

كانت تلك القصيدة آخر صيحة فرح في نفس خليل ، فقد اقتحمه الحدث أمام بيته يراه في طريقه وينظر إليه من شبّاك بيته . اقتحمت الحرب الأهليّة في لبنان حياة خليل ، فدمّرت ما تبقّى من جذوة الأمل ، ورأى ما رأى ، وهو الذي تجرح قلبه همهمات النسيم ، وكابد ما كابد . وانحصرت حياته بين بيته في رأس بيروت وشارع الحمرا . ثمّ بدأت بيروت تفرغ شيئاً فشيئاً وتضيق يوماً بعد يوم . كنّا نتنزه معه كلّ مساء من الجامعة الأميركيّة إلى الروشة ، وكان يرى الأكشاك تتكدّس على رصيف الروشة وتسدّ علينا آخر طريق يمكننا أن نتنزه عليه .

من يقرأ قصائد خليل حاوي في هذه المرحلة (من جحيم الكوميديا) يرى أيّ إحباط أصابه في المعاناة والرؤية واللغة . ربّما تعبير واحد نعثر عليه في هذه المجموعة يحاول خليل أن يعزّي به نفسه ولو لم يكن يقتنع به كلّ الاقتناع :

" لبنان سوف يشدّ يمناه على اليسرى

يعود تضمّه الأمّ الكريمة "

انبهرت أنفاس خليل ، فانبهرت القصائد وأصبحت أقرب إلى المقطوعات ، وأضحت اللغة فيها لغة المواجهة المباشرة .

كان يمكن لخليل أن يتجاوز تلك الحالة ، لو لم يفاجئه الحدث الجلل : عدوّ التاريخ يخترق الوطن ، يأسره ، وها هي بيروت محاصرة ، وأنياب الغول تحيق بها .

انهار الحلم ، فانهارت القصيدة . انهارت القصيدة فانهار الشاعر والإنسان في خليل حاوي ، وكانت طلقة من " جفت" (بندقية) صيد تنهي الصرخة التي تركها لأمّه الحزينة :

" يا لثقل العار ! هل حُمّلته وحدي ؟ "